

﴿ وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا فَتَحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا قَالُوا بَلَىٰ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٧١﴾ ﴾

[سُورَةُ الزُّمَرِ: ٧١]

أصناف الناس يوم القيامة

روائع

اللقاء الثاني عشر من تفسير سورة الزمر | شرح الآيات 75-71

2022-09-10

السَّلَامُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ، بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، الحمد لله ربَّ العالمين، والصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَلَى نَبِيِّنَا الْأَمِينِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ أَجْمَعِينَ، اللَّهُمَّ عَلِّمْنَا مَا يَنْفَعُنَا، وَانْفَعْنَا بِمَا عَلَّمْتَنَا، وَزِدْنَا عِلْمًا وَعَمَلًا مُتَقَبِّلًا يَا رَبَّ الْعَالَمِينَ، وَبَعْدُ:

الآيات الأخيرة في سورة الزمر:

أيها الأحباب؛ مع اللقاء الأخير من لقاءات سورة الزمر ومع الآية الواحدة والسبعين من السورة وهي قوله تعالى:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
﴿ وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا فَتَحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا قَالُوا بَلَىٰ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ (71) ﴾

الآيات الأخيرة في سورة الزمر سميت السورة باسم ما ورد في هذه الآيات (الزمر)، الزُّمَرُ: جمع زمرة، والزمرة هي الجماعة، ولا يقال زمرة إلا إذا كانت ستتلوها زمرة أخرى يعني فإذا مرَّ بعض القوم -جماعة- يُقال: هذه زمرة إذا ستأتي بعدها زمرة أخرى، فالزُّمَرُ جماعات متتالية تأتي عقب بعضها، وحال أهل النار أنهم يأتون إلى جهنم -والعياذ بالله- بعد أن يُحاسِبُوا يأتون زُمَرًا، وكذلك حال أهل الجنة جماعات يدخلون إلى الجنان التي أعدها الله تعالى لهم.

(وَسِيقَ) هذه الواو للاستئناف كلام مُستأنَف (سِيقَ) فعل لم يُسمَّ فاعله، وقد أسلفت لكم سابقاً أن الأولى في الفعل الذي نسميه مدرسياً الفعل المبني للمجهول أن يُسمَّى - لاسيما في القرآن- لم يُسمَّ فاعله؛ لأن فاعله كثيراً ما لا يكون مجهولاً وإنما لم يُسمَّ لغرض بلاغي فإذا قال تعالى:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا (28)

سوق الإنسان إلى مصيره:

ففاعل الخلق ليس مجهولاً بل هو أعرف المعروفين وعَلَم -جل جلاله- وهو الخالق لكن الفعل لم يُسمَّ فاعله لغرض بلاغي لشدة العلم به مثلاً، فلذلك الأولى في الفعل إذا كان مبنياً لما أن نقول: مبني لما لم يسمَّ فاعله، (يسبق) لم يسمَّ فاعله وفي آية أخرى:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ (21)

(سورة ق)



السَّوْقُ عكس القود

فمن الذي يسوق؟ الملائكة الذين كلّفهم الله تعالى بأن يسوقوا، السَّوْقُ والقود، القود: يمشي القائد وخلفه من يتبعه، والسَّوْقُ: يمشي السائق وإمامه من يسوقه، فالسَّوْقُ عكس القود، القائد في المقدمة، السائق في مؤخرة الركب، السَّوْقُ فيه إهانة إلى حد ما، وسيُشكل عليكم كيف أقول فيه إهانة وبعد قليل: (وَيَسْبِقُ الَّذِينَ يُنْقِضُونَ عَهْدَهُمْ) وسأتاني إلى ذلك، لكن أصل السَّوْقُ يعني فيه بعض الإهانة أن يُساق الإنسان إلى مصيره، (وَيَسْبِقُ) الملائكة يسوقون هؤلاء المستحقين للعذاب (الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا) ماهي هذه الزمرة؟ يعني:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
يَقْدُمُ قَوْمُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فَأُورِدَهُمُ النَّارَ وَنُفْسٌ لَّوْرِدٌ لِّمُؤْرَدٍ (98)

(سورة هود)

فرعون ومن معه ممن تبعه زمرة، زمرة الفراعنة، وقد نقول: إن الزمر مقسمة حسب العصاة، فهناك زمرة الزناة -والعياذ بالله- هناك زمرة المشركين، وهناك زمرة المُرابين، وهناك زمرة القاذفين للمحصات، وهناك وهناك...، فيُقسَّم أهل النار -والعياذ بالله- إلى زمر بعد أن يستحقوا العذاب.

(وَيَسْبِقُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا) وصلوا إلى جهنم عند وصولهم فُتِحَ الباب، (فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا) جواب شرط (حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا) يعني لما جاؤوها فتحت أبوابها إذا كانت مغلقة قبل أن يصلوا إليها، وهذا فيه تهويل وتشديد في العذاب -والعياذ بالله- الباب مغلق، باب الرحمة مفتوح دائماً لكن باب العذاب في الأصل مغلق لكن لما وصلوا فتح الباب فوجدوا مصيرهم ينتظرهم، ففيه تهويل (حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا) إذا فيه عنصر المفاجأة وعنصر التهويل وهذا جواب الشرط، وصلوا فُتِحَتِ الأبواب عند وصولهم، (وَقَالَ لَهُمْ خِرَنُّهَا) الخزنة: جمع خازن وهم حراس النار قائمون عليها وهم غلاط شداد لا يعصون الله ما أمرهم:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْجِبَارَةُ عَلَيْهِمْ مَلَكَةٌ غُلَاطٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ

وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ (6)

(سورة التحريم)

فهؤلاء خزنة النار يستقبلون الكفار بالإهانة والتفريع والتوبيخ فهم غلاط شداد.

بشرية الأنبياء:

(فُيْحَتْ أَبْوُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَرَئْهَا أَلَمْ تَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ) هذا استفهام تقريرى كقائل لابنه في نهاية العام الدراسي وقد رُسِبَ بعدما قدم له والده ما قدم، فيقول له عندما يأتي وقد رُسِبَ: ألم أقم بواجبي تجاهك؟! ألم أحذرك مغبة الرسوب؟! ألم أقل لك إن مصيرك سيكون الرسوب إن لم تدرس؟! فهذا الاستفهام لا يُراد منه جواباً وإنما يُراد منه تقرير للحقيقة؛ وهي أن الرسل قد جاءت حتى تُلغى الحجة فلا حجة لهم أمام الله:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
قُلْ فَلِلَّهِ الْخُجَّةُ ۖ وَلِلَّهِ ٱلْبَلَاغَةُ ۖ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ (149)

(سورة الأنعام)

(أَلَمْ تَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ) وقال: منكم، بمعنى أنهم من جنسكم بشر مثلكم، فما بعثت لكم ملائكة قد لا تفهمون عليهم أو يقول قائل منكم: هؤلاء ملائكة ونحن بشر فكيف يأمرونا بشيء لا نستطيعه، لكن جاء الرسل منكم بلغنكم بلسانكم يتكلمون بكلامكم، يشتبهون ما تشتبهون، يرضون كما ترضون، يحبون كما تحبون، قال - صلى الله عليه وسلم:-

{ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ، أُرْضَىٰ كَمَا يَرْضَى الْبَشَرُ، وَأَعْصَبُ كَمَا يَعْصَبُ الْبَشَرُ }

(أخرجه مسلم عن أنس بن مالك)

وقال تعالى:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهُ وَجِدَ فَمَن كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ ۖ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ ۚ
أَحَدًا (110)

(سورة الكهف)



الآيات هي العلامات

فبشرية الأنبياء حجة على الأتباع؛ لأنهم لو لم يكونوا بشراً لما كان الاتباع لهم منطقياً أو لقال بعض الناس: كيف نتبعهم وهم ليسوا منا؟ فهنا لإقامة الحجة قال: (أَلَمْ تَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ).

(يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ) التلاوة من قراءة الرسالة أو النص لأن الكلام يتبع بعضه بعضاً، يتلو بعضه بعضاً فسميت تلاوة، والآيات في الأصل هي آيات القرآن الكريم، وآيات الإنجيل، وآيات التوراة، وآيات الزبور وآيات صحف إبراهيم وموسى كلها آيات، خطابنا لجميع الخلائق (أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ)، ولكن يُستعار لفظ الآيات والآيات هي العلامات، يُقال: هذه الفتاة الصغيرة آية في الجمال، أي علامة على الجمال علامة فارقة، فالآيات علامات دالة على وجود الله فُتستعار الآيات المتلوة في القرآن هي الآيات المتلوة في الكون كشجرة تُبشِّرُ بوجود خالق لها، وشمس تُبشِّرُ بوجود من أنارها، وهلاك قوم ظلموا وعتوا عن أمر ربهم ورأيت آثارهم.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ نَظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ (11)

(سورة الأنعام)

إلى غير ذلك، فأيات الله إما أن تكون متلوة في الكتاب المسطور أو أن تكون مرئية في الكتاب المنظور وهو الكون، كلها آيات (يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ) أي يخوفونكم.

تفصيل في كلمة العذاب:



يوم القيامة هو خير ينذرنا به الله تعالى

(لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا) الآن اليوم أصبح واقعاً مُشاهداً، لكن في الدنيا كان اليوم خبراً، يوم القيامة الآن بالنسبة لنا جميعاً للعاصي والطائع للمؤمن والكافر هو خير ينذرنا به الله تعالى، ينذرنا به الرسل، ينذرنا به العلماء الربانيون -من خلال القرآن والسنة طبعاً- فنحن الآن مُنذرون بأن هناك يوماً سيأتي وهذا اليوم ستسوّى فيه الحسابات، وهذا اليوم سيدخل الطائعون الجنة وسيدخل الكفار النار، هذا اليوم آتٍ لا محالة لكنه الآن خبر، لكن هنا (وَيُنذِرُوكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا) أصبح اليوم حسّاً وليس خبراً. (قَالُوا بَلَىٰ) أفروا على أنفسهم (وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ) حَقَّتْ: أي وجبت، كلمة العذاب هي قوله تعالى:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدًى وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِن لَّجِنَةٍ وَنَاسٍ أَجْمَعِينَ (13)

(سورة السجدة)

الكلمة في الأصل تقول: "كتب" كلمة، تقول: "محمد" كلمة، تقول: "في" كلمة، الكلمة اسم وفعل وحرف، لكن قد تقول: ألقيت كلمة في الاحتفال وأنت لم تتكلم بكلمة واحدة؛ لأن الكلمة وحدها لا تؤدي معنى، الجملة تؤدي معنى، فقد تكون قد ألقيت كلمة مدتها عشر دقائق فيها ألف وسبعمئة كلمة لكنها في مجموعها تسمى كلمة، قال تعالى:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِن وَرَائِهِم بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ (100)

(سورة المؤمنون)

وهنا الكلمة من هذا النوع، فهذه الكلمة هي: (الْأَمَلَانِ جَهَنَّمَ مِنَ الْجَنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ)، (وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ) هذا كلامهم، طبعاً تفصيله أن كلمة العذاب حقت عليهم بكفرهم، ثبتت عليهم ووجبت لهم النار بسبب بعدهم عن منهج الله تعالى وكفرهم به فليس الأمر عشوائياً بأنها ثبتت عليهم ولم تثبت على غيرهم - معاذ الله - حقت عليهم بما صنعوا، قيل:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوًى الْمُتَكَبِّرِينَ (72)

جهنم لها أبواب، لها سبعة أبواب والجنة لها ثمانية أبواب، الجنة رحمة والرحمة أوسع فجعل لها ثمانية أبواب في مقابل سبعة أبواب العذاب، فأبواب جهنم سبعة، وما الفرق بين قيل: ادخلوا جهنم أو ادخلوا أبواب جهنم؟ أبواب جهنم أي أن العذاب يستقبلهم منذ لحظة دخولهم، يعني لا يوجد ممر بعد الباب وجهنم في الداخل، لمجرد أن دخلوا من الباب فقد بدأ العذاب -والعياذ بالله- (قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا)، الخلود له بداية وليس له نهاية وفي القرآن الكريم غالب آيات العذاب يأتي فيها الخلود من غير تقييد بالأبد بينما غالب آيات الرحمة يُقَيَّدُ الخلود بالأبد.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَهُمْ فِيهَا أَرْزُاقٌ مُطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا طَالِيَانٌ (57)
(سورة النساء)

ذلك أن الخلود في نار جهنم قد لا يكون إلى مالا نهاية؛ لأن هناك عصاة ومذنبين يستحقون النار ويُعاقبون على ذنوبهم ثم يُخرجون منها إلى الجنة، وقد ثبت ذلك في الأحاديث الصحيحة؛ أما الجنة فخلود لا خروج بعده أبداً من الجنة.

التكبر على طاعة الله تعالى:



إياك أن تسعى إلى شرعة هذه المعصية (قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوًى الْمُتَكَبِّرِينَ) المثنوى: هو مكان الإقامة، وهؤلاء استحقوا النار بتكبرهم لا بعصيانهم، هؤلاء استحقوا النار لا بسبب معصيتهم وإنما بسبب تأييدهم على طاعة الله تعالى، لذلك كنا نقول ونعيد: ألف معصية يصنعها الإنسان تغلبه شهوته فيقع فيها ثم يندم ويستغفر لا تُعَادِلُ معصية واحدة يفعلها الإنسان متكبراً عن طاعة الله تعالى، ولذلك نقول دائماً: إذا زلت قدم إنسان فوقع في معصية فليستر على نفسه وليتب إلى الله تعالى منها والله تَوَّابٌ رحيم، ولكن إياك أن تسعى إلى شرعة هذه المعصية، فتقول: وماذا صنعنا؟! والموضوع فيه قولان، وأنتم تبالغون، وتجعل هذه المعصية -والعياذ بالله- وكأنها لا شيء فيها فتَهُونُها في عيون الناس، المعصية معصية والحرام حرام، لكن هنا قال: (فَبِئْسَ مَثْوًى الْمُتَكَبِّرِينَ) لأن ما أوردتهم النار هو كبرهم، وأول معصية عُصِيَ الله تعالى بها في الأرض من الكبر، إبليس:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ (34)

(سورة البقرة)

أما ثاني معصية فكانت من الغلبة والضعف: وهاتان المعصيتان: معصية الكبر ومعصية الغلبة كل معاصي ابن آدم ستندرج تحت واحد منهما إلى يوم القيامة، معصية إبليس ومعصية آدم فالمؤمن معصيته من نوع معصية أبيه آدم -عليه السلام- تغلبه نفسه فيتوب:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (37)

(سورة البقرة)

والبعيدون عن الله المنحرفون معاصيهم معاصي إبليس يستمرئون المعصية ويفعلونها ولا يرون أنهم قد فعلوا ما يوجب توبة ولا ندماً ولا استغفاراً، تكبر-والعباد بالله- فقال: (فَيُنْسِئُ مَتَوًى الْمُتَكَبِّرِينَ).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
وَسِيقَ الَّذِينَ تَعَفَّوْا رَبَّهُمْ إِلَىٰ لُحَّةٍ زُمَرًا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوُوبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلِّمُ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ وَلَا دُخْلُهَا خَالِدِينَ (73)

(وسيق) هنا جاءت من باب المشاكلة في اللغة العربية، والمشاكلة من المحسنات البديعية فإذا ذكرت:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا (15) وَأَكِيدُ كَيْدًا (16)

(سورة الطارق)

فهذا من المشاكلة.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرٌ لِّلْمُكِيرِينَ (54)

(سورة آل عمران)

فهذا من المشاكلة؛ لأن المكر بمعناه اللغوي الدقيق يفعله غالباً الضعفاء.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
مَنْ كَانَ يُرِيدُ لُغْرَةً فَلِلَّهِ لُغْرُهُ جَمِيعًا إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ لِسَيِّئَاتٍ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكَرَ أُولَٰئِكَ هُوَ يُتَوَرَّ (10)

(سورة فاطر)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكًا وَآتَتْ كُلَّ وَجْدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ خُزْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حُشِّنَ لِّهٖ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ (31)

(سورة يوسف)

وكذلك الكيد يكيد الضعفاء، لكن الله تعالى سمى رده على كيدهم كيداً، وسمى رده على مكربهم مكراً من باب المشاكلة، فلما قال تعالى هنا: **(وَسِيقَ الَّذِينَ تَقُوا رَبَّهُمْ)** فستان بين سوق أهل النار إلى النار، وبين سوق أهل الجنة إلى الجنة فأهل الجنة يأتون إلى الرحمن وفداً.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
يَوْمَ نَخْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الْرَحْمَنِ وَفْدًا (85) وَنُسَوِّقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَى جَهَنَّمَ وَرْدًا (86)

(سورة مريم)

عطاشاً يأتون عطاشاً فستان بين من يأتي إلى الله تعالى وهم وفد الرحمن وبين من يأتي عطشان يريد شربة ماء فلا يجدها، فسوق عن سوق يختلف لكنه من باب المشاكلة.

معنى الزمر:

(وَسِيقَ الَّذِينَ تَقُوا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ رُجُومًا) أيضاً جماعات، ورد في بعض الأحاديث الصحيحة باب الصدقة للمتصدقين، وباب الجهاد يدخل منه أهل الجهاد، وباب الريان يدخل منه الصائمون، قال أبو بكر -رضي الله عنه- انظر إلى طموح أبي بكر دائماً:

{ قَهْلُ يُدْعَى أَحَدٌ مِنْ تِلْكَ الْأَبْوَابِ كُلِّهَا، قَالَ: تَعَمَّ وَأَرْجُو أَنْ تَكُونَ مِنْهُمْ }

(صحيح البخاري عن أبي هريرة)

وفي الحديث:

{ وَيَدْخُلُ الْجَنَّةَ مِنْ هَؤُلَاءِ سَبْعُونَ أَلْفًا بِغَيْرِ حِسَابٍ ... }

- زمرة من أمتي قال يدخلون الجنة مع النبيين بغير حساب ولا عقاب-

{ قَالَتْ عُكَّاشَةُ بِنْتُ مِخْصَنٍ: ادْعُ اللَّهَ لِي يَا رَسُولَ اللَّهِ أَنْ يَجْعَلَنِي مِنْهُمْ. فَقَالَ «اللَّهُمَّ اجْعَلْهُ مِنْهُمْ»، فَطَمَعَ رَجُلٌ آخَرُ فِي أَنْ يَكُونَ مِنْهُمْ، فَقَامَ

فقال: «أُمِئْتُمْ أَنَا؟ قَالَ: سَبَقَكَ بِهَا عُكَّاشَةُ {

(صحيح البخاري عن عبد الله بن عباس)

يبدو الجالسون كانوا كثيراً وكل واحد قال له: وأنا-طموح-، الطموح جيد، ولكن النبي -صلى الله عليه وسلم- أوقف لأن هذا بحاجة عمل، فلو كل واحد اتكأ على الدعاء مشكلة، الدعاء مطلوب لكن مع العمل فقال: **(سَبِّحْ بِهَا غُكَّاسَةً)** يعني توقفوا، انهضوا إلى العمل، قال له:

{ أَشَأْلُكَ مُرَاقَقَتَكَ فِي الْجَنَّةِ. قَالَ: أَوْ غَيْرَ ذَلِكَ، قُلْتُ: هُوَ ذَلِكَ. قَالَ: فَأَعِنِّي عَلَى تَفْصِيلِ بَكْتَرَةِ الشُّجُودِ }

(صحيح مسلم عن ربيعة بن كعب الأسلمي)

يعلمنا النبي -صلى الله عليه وسلم- أن طلب الجنة من غير عمل ذنب من الذنوب، تريد مرافقتي في الجنة لازم عمل، قال له: **(أَوْ غَيْرَ ذَلِكَ)** حاول معه، قال له: فقط، قال له: سلني حاجتك في بداية الحديث، أخذ وقته، حاجتك إذا قال له: أعطني مزرعة يعطيه النبي -صلى الله عليه وسلم- يقول له: أعطني الغنائم كلها، هناك حلول، هناك خيارات، قال: لا أريد إلا مرافقتك في الجنة، قال: **(فَاعِنِّي عَلَى تَفْصِيلِ بَكْتَرَةِ الشُّجُودِ)**، ساعدني قدم شيئاً حتى أنا أسأل الله أن ترافقتي في الجنة.

فهؤلاء زمر: زمرة الصائمين، زمرة المجاهدين، زمرة طلبة العلم، زمرة المنفقين في سبيل الله، فنوطن أنفسنا أن نكون في أكثر من زمرة، إذا قصر بنا السبيل في زمرة المنفقين فنكون في زمرة طلاب العلم -إن شاء الله- يعني يوطن الإنسان نفسه أن يكون في زمرة من زمر أهل الخير وكل إنسان ربنا -عز و جل- فأنح له باباً، هناك إنسان الله فتح له باب ببر الوالدين زمرة من الزمر، يقول لك: والله يعني دخلي قليل لا يكاد يكفيني، وأنا رجل طلب علم ضعيف جداً أكاد أحسن بعض الآيات وأصلي بها، لكن عندي والدين حياتي كلها أبذلها في رضاها حسناً زمرة جيدة، فكل إنسان ربنا -عز و جل- فتح له باباً من أبواب الخير يلج منه في زمرة من هذه الزمر.

الوصول إلى أبواب الجنة:

(وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا) هناك قال: (حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا فُتِحَتْ) هذا جواب الشرط، الأبواب مغلقة **(حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا فُتِحَتْ)** جواب شرط، هذا هنا ليس جواب الشرط هذه أو الحال **(حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلِّمُوا عَلَيْكُمْ مِثْلُكُمْ فَأَدْخَلُوهَا خِلْدِينَ)** أين جواب الشرط؟ لا يوجد جواب شرط، جواب الشرط أعظم من أن يكون **(حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا)** وتوقف الذهن عند **(فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا)** الجواب **(حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا)** هناك:

{ يقول الله تعالى: أعددت لعبادي الصالحين، ما لا عين رأت، ولا أدن سمعت، ولا خطر على قلب بشر }

(أخرجه البخاري ومسلم عن أبي هريرة)



الأبواب المفتوحة مزيد من التكريم

فلو قال لك: **(حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا)** وجدوا كذا وكذا وكان وصف لك الشيء الموجود وهو لا يُوصف، فتركه -جل جلاله- من غير جواب، أنت تخيل الجواب من عندك، هذا سبب الواو **(حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا)** أنت تنتظر جواب الشرط، لم يأت جواب الشرط، أنا إذا قلت لك: إن جئتني وطرقت الباب، ووقفت قليلاً ثم طرقت الجرس -جرس الباب- وناديتني، إلى الآن أنا لم أعط جواب الشرط، أما إذا قلت لك: إن جئتني طرقت الباب، انتهى الكلام، فصار طرق الباب هو جواب الشرط.

(حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا) أجاب عن الشرط، **(حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا)** لم يجب عن الشرط، والأبواب هناك فتحت عند مجيئهم وعند وصولهم، لكن **(حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا)** جاؤوها وهي مفتوحة أبوابها من قبل وصولهم إليها، وهذا من مزيد التكريم، إذا أنت عندك موعد مع شخص مهم جداً تفتح الباب قبل أن يصل، تسمع صوت المصعد تخرج تفتح الباب وتنتظره، فلا تنتظر حتى يصل تفتح له الباب هذا من التكريم، فالأبواب هنا مفتوحة من قبل وصولهم.

قال البعض: إن هذه الواو هي واو الثمانية، والحقيقة هناك وهم هذا الأمر لا أوافق على ذلك، ولكن سأقول لكم ماهي واو الثمانية، أبواب الجنة ثمانية ورد ذلك في الأحاديث الصحيحة.

هناك واو في اللغة العربية هي واو الثمانية، وهي أن العرب عندما تعدّ عدة أشياء تضع واو قبل الشيء الثامن، كقوله تعالى:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
لَتَنبُيُونَ لَأُغِيدُونَ لَلشَّيْخُونَ لَلرَّكُوعُونَ لَلسَّجْدُونَ لَأَمْرُونَ لَلْمَعْرُوفِ وَلَلنَّاهُونَ عَنِ لَلْمُنْكَرِ وَلَلْخُفْيُونَ لَلْجُدُونَ
لَللَّهِ وَلَيَسِّرَ لَلْمُؤْمِنِينَ (112)

(سورة التوبة)

إلى أن قال: (لَأَمْرُونَ لَلْمَعْرُوفِ) السابعة (وَلَلنَّاهُونَ عَنِ لَلْمُنْكَرِ).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
عَسَى رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنْ أَنْ يَبْدِلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِّنْكَ مِثْلَ مِثْلِكَ مُؤْتِي قِتْلٍ قَتِيلٍ عِيدٍ شَيْخٍ تَبِيٍّ وَأَبْكَارًا (5)

(سورة التحريم)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِمْ مَا
يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَهْرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَدًا (22)

(سورة الكهف)

لها عدة أمثلة أن العرب تأتي بالواو قبل الشيء الثامن، في اللغة الإنجليزية يضعون واواً قبل آخر مذكور، يعدّون الصفات كلها آخر شيء يضعون (and) وكذا، وهذا موجود في اللغة العربية من قبل الإنجليزية لكن يستخدمونه مع الثامن؛ لأنه في الأصل السبعة هو العدد الكثير في اللغة سبعة تأتي للتكثير فسبعة تكون أنت أكثر من الكلام فصار من المناسب أن تقول: واو، السبعة ومشتقاتها في اللغة العربية للتكثير.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
تَسْتَغْفِرُ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرُ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاللَّهُ لَا
يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ (80)

(سورة التوبة)

فالبعض قال: هذه الواو واو الثمانية جاءت مع أبواب الجنة الثمانية (وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا) لأنها ثمانية، لكن لا أجد ذلك مناسباً هنا في هذا المقام لكن هذه هي قصة واو الثمانية، لكن هنا -والله أعلم- هي هذه الواو هي واو الحال (خَتَّتْ إِذَا جَاءُوهَا) حال كون أبوابها مفتوحة تنتظر قدومهم ولم يذكر جواب الشرط لترك الأمر كما وصفه -صلى الله عليه وسلم-: (ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشي).

وعد الله تعالى للمؤمنين:

(وَقَالَ لَهُمْ خَرَائِفُهَا) وخزنة الجنة أيضاً غير خزنة النار (سَلَامٌ عَلَيْكُمْ) تحية السلام (طِبْتُمْ) طابت إقامتكم من الطيب وحسن الإقامة (فَدُخِلُوهَا خَالِدِينَ) استقبال جميل جداً، وقالوا أهل الجنة:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَقَالُوا لَنُحْمَدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقْنَا وَعَدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَبِّئُوا مِن لَّجَّتِهِ حَيْثُ نَشَاءُ فَيَعْمَ أَجْرُ الْعَمِلِينَ (74)

وعد الله صادق لا محالة، قالوا هنا: الحمد لله الذي جعلنا أهلاً لأن يصدق فينا وعده -جل جلاله- الوعد صادق، لكن هل أنا أهل لهذا الوعد أم لا؟! لما نقول اليوم:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءَهُمْ بِالتَّبَيُّنِ فَانْتَفَقْنَا مِنْ الَّذِينَ أَجْرُمُوا وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ (47)

(سورة الروم)



الله تعالى ينصر المؤمنين

فهل نشك للحظة في أن الله تعالى ينصر المؤمنين، لا نشك (حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ) ولكن الشك هل نحن مستحقون لهذا النصر كمجموع أمة أم لا؟!

فلما يرون ما أعد الله تعالى لهم يقولون: (لَنُحْمَدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقْنَا وَعَدَهُ) أي صدق وعده فينا بأن كنا أهلاً لذلك، ولو قلنا: (لَنُحْمَدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقْنَا وَعَدَهُ) بمعنى المتبادر إلى الذهن -وهو أن- فهذا لا يعني أنهم كانوا يشكون في أن الله تعالى سيصدق وعده في الجنة، ولكن انتقلوا من علم اليقين إلى حق اليقين إلى عين اليقين، فهو فقط انتقال من مرحلة ليست فيها شهود بالعين مباشر إلى مرحلة فيها شهود، فهنا صدق الوعد بمعنى أنهم انتقلوا في الدنيا كانوا يعلمون علم اليقين بأن الله تعالى سيدخلهم الجنة إن هم أطاعوه، الآن لما رأوا الجنة صار عين اليقين، لما قيل لهم: ادخلوها وأصبحوا في الداخل صار حق اليقين لا لبس فيه.

(وَقَالُوا لَنُحْمَدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقْنَا وَعَدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ) الإرث يأتي غالباً من غير كد ولا سعي ولا تعب، فاستعبر هنا للدلالة على أنهم أخذوا الجنة من غير ما يكافئها من جهد، العوام يقولون لك: فلان ولد وفي فمه ملحقة من ذهب، لم يتعب بالمال يعني توفي والده فأخذ كل أموال والده فورثها، فالإرث لا يكون هناك استحقاق لمن يأخذه لم يبذل شيئاً في مقابلته، أصحاب الجنة بذلوا:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
وَتَرَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِّنْ غَلٍّ تَجْرَى مِنْ تَخَنُّمِهِمْ لَأُثْبِتَنَّ وَقَالُوا لَنُحْمَدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنَّ هَدَانَا لِلَّهِ لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ وَنُودُوا أَنْ تِلْكَمُ الْجَنَّةُ أَوْرَثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (43)

(سورة الأعراف)

لكن للدلالة على أن ما قدموه ليس مكافئاً لما أخذوه، ولا يمكن مقارنة ما حصلوه بما قدموه، فما الذي قدمه الإنسان في ستين سبعين سنة من طاعات وقربات حتى يستحق جنة إلى أبد الأبدن فيها (ما لا عين رأت، ولا أدنى سمعت، ولا خطر على قلب بشري) فمن هنا جاء الميراث (أَوْرَثْنَا الْأَرْضَ) الأرض هنا هي الجنة وقال تعالى:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ (105)

(سورة الأنبياء)

وهنا أيضاً قال ابن عباس: الأرض هي الجنة، الأرض فيها تربة والنبى -صلى الله عليه وسلم- قال عن الجنة تربتها مسك، فالجنة أرض (أُورَتْنا لِأَرْضِن) أي أعطانا من غير حق لنا فيها أعطانا الجنة.

(تَتَبَوَّأُ) التَّبَوَّأُ: هو السكنى والنزول في المكان، (تَتَبَوَّأُ) أي تنزل فيها، (مِنْ لُجْنَةٍ حَبْتُ نَسَاءٍ) يعني لك مطلق الحرية في الحركة في الجنة فجعلها الله لك منزلاً يوم القيامة (تَتَبَوَّأُ مِنْ لُجْنَةٍ حَبْتُ نَسَاءٍ فَيَنْعَمُ أَجْرُ الْعَمَلَيْنِ) الذين عملوا لهذا اليوم فالجنة تحتاج إلى عمل، صحيح أن العمل ليس ثمناً للجنة لكنه سبب لدخولها، هذا معنى قوله-صلى الله عليه وسلم-:

{ فَإِنَّهُ لَنْ يُدْجَلَ الْجَنَّةَ أَحَدًا عَمَلُهُ قَالُوا: وَلَا أَنْتَ؟ يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: وَلَا أَنَا، إِلَّا أَنْ يَتَعَمَّدَ بِي اللَّهُ مِنْهُ بِرَحْمَةٍ }
(أخرجه البخاري ومسلم عن عائشة أم المؤمنين)

كيف نوفق بين هذا وبين قوله تعالى: (يُلَکُمُ لُجْنَةُ أُورْتُمُوها بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ) أي بسبب عملكم؟ الجنة محض فضل من الله تقدم سببها لكنك لا تقدم ثمنها، فإذا قال لك إنسان: أعطني القلم الذي في جيبيك وانزل خذ سيارتي ثم جلست في مجلس فقلت: اشتريت اليوم سيارة، قال لك إنسان: وماذا دفعت ثمنها؟ قلت: قلم، يضحكون عليك، القلم ثمن السيارة؟! لكن هو جعله سبباً، هو أحب القلم وأراد أن يكرمك بسيارته وبهبتها لك فقال لك: هات القلم، فالقلم سبب لو لم تعطه القلم ما أعطاك السيارة، لكنه سبب لها وليس ثمناً لها، فإن قال: دفعت ثمنها يضحكون عليك، والجنة ثمنها ليس العمل إذ لا ثمن لها وإنما هي فضل من الله تعالى ورحمة، لكن لابد من أن تقدم سببها وهو العمل فقال: (فَيَنْعَمُ أَجْرُ الْعَمَلَيْنِ)، ونعم: للمدح عكس بنس للذم.

الملائكة حول العرش:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ خَافِقِينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَقِيلَ لَحَمْدٌ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (75)

(وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ) وترى يا محمد-صلى الله عليه وسلم- فالخطاب له وكلنا -إن شاء الله- سنرى هذا المشهد الجميل، (وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ خَافِقِينَ) خافين: من حواف الشيء وهو جوانبه فعندما يحفه يكون حوله على جوانبه.



التسبيح هو تنزيه وحمد معاً

(خَافِقِينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ) عرش الرحمن - جل جلاله-، (يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ) الباء هذه اسمها في العربية باء الملايسة، (يُسَبِّحُونَ) ينزهون الله تعالى ويمجدونه ويقدسونه، ويلبس في الوقت نفسه يلبس هذا التسبيح حمد لله تعالى، فهو تنزيه وحمد معاً، عندما تقول: سبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم، يعني تنزهه وأنت تحمده على نعمائه معاً.

(يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ) بينهم: أي بين الملائكة، وقال بعضهم: بل قضي بينهم بين أهل الجنة وأهل النار وغير ذلك، لكن السياق (قُضِيَ بَيْنَهُمْ) الملائكة لأن الملائكة في الأصل مراتب، هناك الملائكة العالون، هؤلاء الذين لم يؤمروا بالسجود لآدم قال:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قَالَ إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ يَدَيَّ اسْتَكَبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ (75)

(سورة ص)

أنت أمرت بالسجود مع الملائكة، إبليس كان يسمى طاووس الملائكة هو ليس ملاكاً، قال تعالى:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا (50)

(سورة الكهف)

ولو كان ملكاً لما عصى ربه لأن ما عنده تكليف، إبليس من الجن، لكن جلس مع الملائكة وتباهى عليهم وكان هو له مكانة حتى سُمي بطاووس الملائكة لكنه عصى ربه فأصبح إبليس اللعين، ليس بين الله تعالى وأحد من خلقه نسب ولا قرابة، فالملائكة منهم العالون، فلما أمر بالسجود أمر مع الملائكة لذلك قال تعالى:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
فَسَجَدَ لِلْمَلَائِكَةِ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ (73) إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ (74)

(سورة ص)

فيتوهم البعض أن إبليس منهم، هو لأنه أمر معهم فاستثنى منهم، كما تقول في الصف: جاء الطلاب إلا معلمهم، فهل المعلم طالب؟ لا، لكن المعلم مع الطلاب فاستثنى منهم، هذا يسمونه استثناء منقطع، فإبليس ليس ملكاً ولكنه أمر بالسجود مع الملائكة فأبى، فالملائكة منهم العالون ومنهم غير ذلك ممن أمروا بالسجود لآدم، ومنهم الكرام الكائون، ومنهم الحفظة، ومنهم ومنهم فهم أيضاً أصناف عند الله تعالى، فيُفَضِّلُ بينهم بحيث يأخذ كل منهم مكانة وأجره في الجنة، حتى الملائكة يُفَضِّلُ بينهم فيأخذ كل منهم موقعه في جنات الله تعالى، هم كلهم في الجنة، لكن يُفَضِّلُ بينهم بالحق أيضاً فيأخذ كل منهم مكانة.

حمد الله تعالى:



المؤمنون يحمدون الله على ما أنعم به عليهم (وَقِيلَ لِلْحَمْدِ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ) أيضاً قيل لم يسمَّ فاعله، فمن القائل؟ لو أراد الله أن يسمي فاعله لقال، وقال بعضهم: وقال الله: الحمد لله رب العالمين؛ لأنه لا نحصى ثناءً عليك أنت كما أثنيت على نفسك، فيثني على نفسه، ولو قلنا: الملائكة، لقال تعالى: وقال الملائكة: الحمد لله رب العالمين، وهم الآن يطوفون حول العرش ويسبحون بحمد ربهم، ولو قلنا: قال الطائعون المؤمنون: الحمد لله رب العالمين لصح ذلك، فالمؤمنون يحمدون الله على ما أنعم به عليهم، وقد قالوا قبل قليل: (لِلْحَمْدِ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ) فالآن يؤكدون ويقولون: الحمد لله رب العالمين، أطلقت وكان صوتاً ما سيملأ هذا الموقف المهيب بالحمد لله تعالى وكأنك لا تعرف مصدره لتقول: إن كل من في هذا الموقف سيحمد الله تعالى، كل من في الموقف على عدله، على حكمته، على جنته، على ناره، لأن من استحق النار استحقها بعدله-جل جلاله-ومن استحق الجنة استحقها بفضله، فيُحمد على العدل ويُحمد على الفضل، ويُحمد على العقاب ويُحمد على الثواب، وقد ورد في بعض الآثار: (إن العار ليلزم العاصي حتى الكافر حتى يقول: يا رب لإرسالك بي إلى النار أهون عليّ مما ألقى، وهو يعلم ما بها من شدة العذاب).

فالحمد هنا يشمل كل المخلوقات، كل ما خلقه الله تعالى وكأنما الكل بصوت واحد يقول: الحمد لله رب العالمين، فالحمد أول الأمر وآخره، مبتدؤه ومنتهاه، لذلك ما أنعم الله تعالى على عبد من نعمة فحمد الله عليها إلا كان حمده على النعمة أفضل من النعمة؛ لأنك إذا شربت الشربة فقلت: الحمد لله، فالشربة ذهبت ولن تعود لكن الحمد بقي إلى يوم القيامة، فالحمد أفضل من النعمة، فالذي تأتيه النعمة فلا يحمد الله عليها فقد فوت الباقي واشغل بالهاني، أما المؤمن فيحمد الله على كل نعماته بل يحمد الله على ضرائه كما يحمده على سرائه، فإذا جاءه شيء من السوء أو مشه شيء من الصّر قال: الحمد لله، يحمد الله على كل شيء لأن الحمد بدوم لكن البلاء يرول، والحمد بدوم لكن النعمة تفني، فالحمد أهم من كل شيء، فلذلك آخر الأمر وآخر كلمة تُقال بعد أن يدخل في الحساب أن يُقال في السماء والأرض: الحمد لله رب العالمين، ويعدّها نعيم لا ينفد، ونار لا ينقد عذابها-العباد بالله تعالى- (وَقِيلَ) ولم يسمَّ فاعله (لِلْحَمْدِ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ)، والحمد لله رب العالمين